# النزعة الوطنية عند الأندلسيين – لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد المغربي أنموذجين

**آمنة بن منصور**

أستاذ بجامعة عين تموشنت

يحدثنا التاريخ القديم عن نمط عيش العرب في الجاهلية؛ بأنهم كانوا يعيشون في قبائل متفرقة تحكمها العصبية التي كثيرا ما أشعلت حربا لم تبق ولم تذر، وأن القبيلة الأقوى فيهم هي القبيلة التي تمتلك إعلاما قويا يمثله شاعر مفوه يشيد بأمجادها ويدفع عنها أقاويل أعدائها[*]، ومن هنا نشأت الإرهاصات الأولى للمفاضلة بين المدن لاسيما بعد مجيء الإسلام و تبدل نمط العيش عند العرب من القبيلة إلى المدينة ،فضلا على أن العصبية القبلية ظلت قائمة تتأجج من حين لآخر على نحو ما كان بين القيسية واليمنية ..

كان قلب الأندلسي، بدءا، معلقا بالمشرق – الأرض الأم – ولطالما عبر عن شوقه إليها، ولكن سرعان ما تبدلت الأمور وصارت الأندلس أحب البلاد إليه لدرجة أصبح الخروج منها ضربا من العذاب و الشقاء .

وتعلق الأندلسي بأرضه تعلق ندر أن نجد مثيله في المشرق، ولعل السبب راجع إلى شعوره المستمر بأنه سيفقد هذه الأرض يوما، ومن أجل ذلك فهو يتفانى في حبها[**] .

وليس غريبا، والحال تلك، أن يبالغ الأدباء في وصفها وتفضيلها على بقاع الأرض جميعا ، يقول المقري " محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة ، و مجاري فضلها لا يشق غباره، وأنى تجارى و هي الحائزة قصب السبق في أقطار الغرب والشرق"[1] ، ولا نعجب إذا رأينا من يختصر مدن العالم كلها في الأندلس فهي " شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها.. فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة "[2] .

أما الشعراء فقد أفاضوا في تفضيل الأندلس على سائر البقاع، فهذا ابن خفاجة لا يرى الجنة إلا فيها، إذ يقول :

يا أهلَ أندلسٍ للّهِ دَرُّكُمُ **ماءٌ و ظلٌّ و أنهارٌ وأشجَارُ

ما جَنّة الخُلْد إلا في دِيارِكُم ** وهَذهِ كُنتُ لوْ خُيّرتُ أخْتار[3]

**وقال ابن سفر المريي**[***]:

فيها خَلعْتُ عذارِي ما بها عِوض** فهي الرّياضُ وكلّ الأرضِ صَحْراء[4]

وإذا كانت هذه حال الأندلسي العاشق لبلاده المتيم بحبها، فماذا عمن رزئ بالبعد عنها عنوة وغصبا ؟ كالذي أصاب لسان الدين بن الخطيب(776هـ)[****]إذ أُبعد ونفي، فقصد المغرب ونزل بسلا إلا أن فؤاده ظل أبدا معلقا بأرضه الأم، غرناطة، يقول :

ترى هل يعود الشمل كيف عهدته *** ويبلغ قلبي ما اشتهى ويناله

سقى الله من غرناطة متبوئا *** عماما يروي ساحتيها سجاله

وربعا بحمراء المدينة آهلا *** أنيطت على بدر السماء حجاله[5]

وإذا كان ذكر الديار و الحنين إليها أمرا شائعا بين الشعراء ، فإن الغريب فعلا أن يمدح الغريب بلده الأم ، و يفضلها على البلاد التي آوته ، ذاك ما فعله ابن الخطيب الذي كتب مقامة فضل فيها مالقة علسلا[*****] " تعصبا لها ، وتحزبا لوطنه فهو لا يرى في الدنيا ما يفضل الأندلس أو يساويها "[6] .

ويبدأ ابن الخطيب بالثناء على مالقة، وبأنه لا مجال للمقارنة بينها وبين سلا فهي " أرفع قدرا وأشهر ذكرا .. وأبعد التماسا من أن تفاخر أو تطاول"[7]، ويبرر ابن الخطيب تحيزه لمالقة على أساس شروط لا تتوفر عليها سلا وهي " الأمور التي تتفاضل بها البلدان ..وتعرفها حتى الولائد والولدان: المنعة ، والصنعة، والبقعة، والشنعة، والمساكن والحضارة والعمارة .."[8]،" أما المنعة فلمالقة حرسها الله فضل الارتفاع ومزية الامتناع؛ أما قصبتها فاقتعدت الجبل كرسيا، ورفعها الله مكانا عليا .. وسلا على ما علمت سور حقير قور إلى التجنيد والتشييد فقير"[9] فالمنعة إذن لصالح مالقة ذات الحصون المنيعة والأبراج المرتفعة، أما سلا فلا حظ لها من ذلك كله. ويصل إلى النقطة الثانية وهي الصنعة، يقول "مالقة حرسها الله طراز الديباج المذهب، ومعدن صنائع الجلد المنتخب .. وصنعاء صنائع الثياب، ومحج التجار إلى

الإياب..وأي صناعة في سلا يقصد إليها، أو يعول عليها ... أو يتجمل بها في عيد؟"[10]، فالصنعة كذلك حازتها مالقة، وتأتي النقطة الثالثة وهي البقعة وعنها يقول: "خص الله مالقة بما افترق في سواها، ونشر بها المحاسن التي طواها، إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال .. وسلا بلد الرمال ومراكب الجمال، بطيحة لا تنجب السنابل، وإن عرفت المطر الوابل.."[11]، أما عن الشنعة فعنها قال: "مالقة دار الملك في الروم، ومثوى المصاعب والقروم .. وذات ملك في الإسلام، غني بالشهرة عن الإعلام، سكنها ملوك الأدارسة الكرام والصناهجة الأعلام، ثم بنو نصر أنصار الإسلام..وأين سلا من هذه المزية والشنعة العلية؟"[12].

فابن الخطيب فضل مالقة على سلا تفضيلا كليا، وهو يرى نفسه موضوعيا غير متحيز، فهذه "حجج لا تدفع ودلائل إنكارها لا ينفع"[13]، ومن باب الوفاء رأى أن يطيب خاطر سلا ببعض الكلام الطيب فقال "ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب .. إذ لا ينكر فضل اعتدالها وأمنها من الفتن .. ومدفن الملوك الكرام بجبالها "[14]، "ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن الخطيب، وعلى الرغم من حبه لبلاد المغرب و لمدينة سلا بالذات التي لجأ إليها في أوقات محنته، فإن شعوره الوطني جعله يتغاضى عن كل هذه الاعتبارات، ويتحيز إلى المدينة الغرناطية، فيجعلها مفضلة على الدوام، وهو شعور قد يرجع إلى روح المنافسة التقليدية القديمة التي كانت سائدة بين الأندلسيين و المغاربة"[15]، وابن الخطيب لم يكن لينقم على بلاده نظير محنته تلك فهو كما قال الشاعر:

بلادي و إن جَارَت عليّ عَزيزَةٌ ** وأهلِي و إنْ ضَنّوا عليّ كِرام

وقد قاسم ابن الخطيب في هذا الشعور غير واحد من أدباء الأندلس الذين عانوا والمنفى والغربة عموما ومما زاد الأندلسي تعلقا ببلاده، حله وترحاله؛ إذ كان يقارن بينها وبين الأندلس فيجد الفرق شاسعا والبون واضحا، فيزداد حنينه لوطنه، ومن هؤلاء ابن سعيد (ت 685 هـ) فبحكم رحلاته الكثيرة التي ولدت لديه شعورا مستمرا بالغربة، راح يسترجع ذكرياته بالأندلس ويقارن بينها وبين بلدان المشرق التي حط الرحال بها، على أنه يجب التنويه بأن ابن سعيد لم يتخذ التعصب لبلاده عنوانا، وإنما كما قال: "لم تزل البلاغة في كل عصر بالمشارق والمغارب ... والمنصف من أطال عنان الاختبار دون اقتصار، ولم يخص بالفضيلة عصرا من الأعصار، ولا مصرا من الأمصار"[16]. ولعله أراد، بهذا الكلام، أن يبين توجهه المحايد والموضوعي في الحكم على الأمصار مشرقها ومغربها، ولكن هذا لا يعني بأي حال أن يلتزم الصمت أمام من يُعرّض ببلاده، أو ينتقص من قدرها، ويؤيد هذا قوله: "والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتمل كتابا وقد صنفته بالشام لضرورة دعت إلى ذلك من شدة اتخاذ المشارقة على المغاربة من كل جهة...وسميت الكتاب الذي وضعته في ذلك (الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة)"[17](******)

و"ابن سعيد في هذا الكتاب يعتمد على المقارنات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، ويتجنب إطلاق الأحكام الذاتية التي لا تستند إلى أساس، وهو لا يتردد في ذكر فضائل المشرق، وفي تفضيله على المغرب في بعض الأمور "[18] .

و"ابن سعيد لم يفرق بين الأندلسيين والمغاربة ابتداء من عنوان كتابه (الشهب الثاقبة)، حيث جمع فيه العدوتين تحت مصطلح "المغاربة"، ولم يترفع عليهم بقلانس "الأندلسيين"، ولم يذم أحدا، وإنما انتقد أوضاعا رآها؛ على الأقل في هذا الكتاب، عملا بما التزمه"[19].

ولا يعني هذا أنه غير متحزب لبلاده بل على العكس تماما، فمتى استشعر ازدراء لأندلسه هب منافحا مدافعا، ومن ذلك رده على ابن حوقل(*******) الذي وصف الأندلس قائلا: "ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة،و لقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال "[20]، ولعمري إنه لوصف للعبيد أقرب، فقد سلب ابن حوقل أهل الأندلس كل مزية ونسب إليهم كل نقيصة ، فرد ابن سعيد قائلا: "ليت شعري إذ سلب أهـل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيّف؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها ؟

وإني لأعجب منه إذ كان في زمان قد دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث في بلاد الشام، حيث الجمهور والقبة العظمى ... وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة"[21] .

من أجل ذلك تعجب ابن سعيد من ابن حوقل الذي ازدرى الأندلس وأهلها، وكان حريا به أن يزدري بلاد الشام التي تكالب عليها العجم من كل جهة ، فعاثوا فيها فسادا، لم يمنعهم في ذلك توسطها بلاد الإسلام ، وعلى العكس من ذلك فإن الأندلس ظلت قائمة صامدة أمام كل محاولات العدو على الرغم من وجودها وحيدة منفردة تتربصها الأعين بلا كلل.

ويمضي ابن سعيد في المفاضلة بين مدن الأندلس وغيرها من الأمصار التي زارها بناء على موقعها الجغرافي وحظها من الحضارة والعمران، ومنها قوله: "ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها، وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهي في نهاية من الحضارة والنضارة"[22] .

ثم يفصل في الأمر فيقول:" منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة، ثم طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما، لم أر ما يشبه الأندلس"[23]، فابن سعيد يجزم بأنه لا توجد مدينة – من تلك التي زارها – تفضل الأندلس، غير أنه يستثني من ذلك وجود شبه طفيف في فاس ومراكش ودمشق من حيث نضارة الأشجار وجمال التشييد .

ومع ذلك فنحن لا نجد في كلام ابن سعيد انتقاصا أو ازدراء لبلاد المشرق كما فعل ابن حوقل، ومثلما رد ابن فضل الله العمري (ت 749هـ) على "الشهب الثاقبة"، فقد غالى في تعصبه، فقال: "وكيف تستوي بلاد جنوبها الهند؟ وهم من أهل العلم والحكمة، مع صفاء الألوان، وحسن الصورة وكمال التخطيط ... ببلاد جنوبُها حثالة السودان؛ المحترقة ألوانهم، المشوّهة صورهم، المختلفة تخاطيطهم، غاية الجهالة ، والنفوس البهيمية، لا عقول لهم ولا أفهام، هم أقرب شبهاً من بني آدم بالأنعام ..."[24] وفي كلام العمري تجنّ واضح على بلاد لا ناقة لها ولا جمل فيما يدور بين المشرق و المغرب، ثم كيف يعير الأندلس بألوان وأشكال جيرانها؟

وليس غريبا فقد درج المشارقة على امتهان المغاربة(*******)، ووصفهم بأحقر الصفات التي لا تليق إلا بالعبيد، كقولهم: "وهل وصل إلى الغرب من السؤدد، إلا ما فضل عن الشرق،أو لبس إلا ما أعاره من الخليع المبتذل؟لما دخل عبد الرحمن الداخل، إلى جزيرة الأندلس، واجتمع إليه من شذاذ القوم من نفضتهم مزاود المشارق، ولفظتهم أسرة الملك، فحينئذ صار الناس بالغرب ناساً، وإلا كانوا كالبهائم السائمة . فمن ذلك الوقت تكلموا باللغة العربية، وامتازوا بالنطق على الحيوان "[25]، ونحن نظن أن حنق المشارقة على بلاد الأندلس مرده إلى طبيعة الحكم ؛ ففي الأولى كان عباسيا وفي الثانية أمويا خالصا، وصحيح أن العباسيين قضوا على الأمويين في المشرق، ولكن هذا لم يمنع بناء دولة أموية قوية في الأندلس، على يد أحد الفارين من قبضتهم، ضاهت بغداد أيام عزها واستمرت كذلك بعد انتشارها .

ولو وضعنا ابن سعيد والعمري في كفتي ميزان لوجدنا الأول أقرب إلى الإنصاف من الثاني، ذلك أن ابن سعيد المغربي أقر بفضائل المشرق في عدة مواضع منها " تفرده بأخبار أصيلة كبيان فضائل جند المشارقة وتفوقهم على جند المغاربة، وقد ساقته موضوعيته فيه إلى التشهير بفرسان الأندلس"[26]، على حين قال العمري "إن كان لبعض ملوكهم [المغاربة] تلذذ،فلعله لا يبلغ ما لبعض سوقة المشارقة، والمغاربة لا لهم ظاهر ولا باطن"[27] .

إن ابن الخطيب –كما سبق – فضل مالقة على سلا بما يعني تفضيل الأندلس على المغرب ،مع أنها احتضنته مدة نفيه، وابن سعيد فضل الأندلس ومعها المغرب على المشرق ردا على من انتقص منهما واحتقرهما، كل ذلك في اعتدال وحسن أدب وحوار، وقد حق لمن عفّر وجهه بتراب الأندلس أن يفضلها على سائر البلدان.

**الهوامش :**

*- كانت المناظرات من هذا النوع أحيانا سببا في دخول قبائل إلى الإسلام كما حدث مع وفد تميم الذين عرضوا أمام النبي عليه السلام شاعرهم و خطيبهم يفخران بمثالبهم ، فتصدى لهما ثابت بن قيس الخزرجي و حسان بن ثابت فأفحماهما فاعترف الوفد بهزيمتهم و دخلوا في الإسلام-ينظر : المستطرف في كل فن مستظرف : 152

**- تعلق الأندلسي بمسقط رأسه تعلق شديد ، فهو يشعر بالغربة بمجرد أن ينتقل إلى مدينة أخرى أندلسية فكيف إذا غادر الأندلس ؟ فالأندلسيون "يشق عليهم الاندماج في مجتمعات غير مجتمعهم لذلك أكثروا من الشكوى و التذمر و الحنين إلى الديار التي خلفوها وراءهم "-ينظر :الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح :243

1- نفح الطيب : 1 : 127

2-نفسه: 1 : 129

3- الديوان : 364

***- المريي : نسبة إلى مسقط رأسه المرية .

4- نفح الطيب : 1 : 202

****– ذو الوزارتين أبو عبد الله بن محمد بن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد المعروف بابن الخطيب –ينظر نفح الطيب 7 : 5 و ما بعدها .

5– الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح : 341

*****– مالقة هي العاصمة الثانية لبني الأحمر بعد غرناطة ، و قد وصفها صاحب المسالك بأنها بديعة كثيرة الفواكه تختص بعمل صنائع الجلد و التين الذي يجلب منها يعم البلاد شتاء و صيفا .. ، وسلا هي مدينة بأقصى المغرب قصدها ابن الخطيب عندما نفي عام 1360م – ينظر : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : ابن فضل الله العمري: 4 : 145 ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب : أحمد مختار العبادي : 57

6– النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب : عبد الحليم حسين هروط : 94-95

7– مشاهدات لسان الدين بن الخطيب : 57

8–نفسه : 57

9– نفسه : 58 – 59

10– المرجع السابق : 59

11– نفسه : 60

12– نفسه : 60-61

13– نفسه : 65

14– نفسه : 66

15– المرجع السابق : 11

16– عنوان المرقصات و المطربات : 03

17– التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق : 137 و النص موجود في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : ابن فضل الله : 3 : 76

******– لم يصلنا ها الكتاب كاملا أو لعله لا يزال مخطوطا حبيس الخزائن، و ما ذكر منه فشيء قليل في نفح الطيب : 1 : 203 ، و الباقي ذكره ابن فضل الله في كتابه " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " الذي خصص فيه جزءا للرد على ابن سعيد في كتابه المذكور .

18– التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق : 138

19–نقلا عن:ابن فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة :جاسم العبودي ،مجلة الحوار المتمدن ،م س

*******– هو أبو القاسم محمد بن حوقل الموصلي ، صاحب كتاب " صورة الأرض "

20– صورة الأرض : ابن حوقل : 104-105

21– نفح الطيب : 1 : 204

22– نفسه : 4 : 198

23– نفسه : 4 : 201

24– ابن فضل الله في رده على الشهب الثاقبة : د / جاسم العبودي : مجلة الحوار المتمدن ، م س .

********–كان المشارقة ينظرون نظرة ازدراء لكل ما هو آت من الغرب الإسلامي، وبخاصة البربر الذين وصفوهم بأحقر الصفات، ويؤيد هذا قول مؤلف "مفاخر البربر":" لما كانت البربر عند كثير من جهلة الناس أخس الأمم وأجهلها، وأعراها من الفضائل..رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام و رؤساءهم و ثوارهم وأنسابهم .."–مفاخر البربر : مؤلف مجهول : 31

25– م س

26– نقلا عن مقدمة كتاب ابن فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة: د/ جاسم العبودي : *مجلة الحوار المتمدن ، م س .*

27– م ن

**مصادر البحث ومراجعه :**


– **التفاعل الثقافي بين المشرق و المغرب في آثار ابن سعيد المغربي ورحلاته المشرقية و تحولات عصره** : محمد جابر الأنصاري ،دار الغرب الإسلامي ، ط1، بيروت ، 1992

– **الغربة والحنين في الشعر الأندلسي**: فاطمة طحطح ،كلية الآداب، ط1، الرباط، 1993

– **المستطرف في كل فن مستظرف** : شهاب الدين الأبشيهي – تح : عبد الله أنيس الطباع ، دار العلم ، بيروت . دط ، دت

– **النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب** : عبد الحليم الهروط ، جامعة الحسن بن طلال ، دار جرير للشروق والتوزيع، ط2006/1

– **ديوان ابن خفاجة** – تح : سيد غازي ، منشأة المعارف ،ط2 ، الإسكندرية، دت.

– **صورة الأرض** : أبو القاسم ابن حوقل النصيبي ، دار مكتبة الحياة ، لبنان 1992

– **عنوان المرقصات و المطربات** : علي بن موسى بن سعيد المغربي ، جمعه : مصطفى سلامة النجاري ، جمعية المعارف ، 1286 هـ

– **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** : ابن فضل الله العمري ، تح : محمد خريسات،عصام هزايمة يوسف ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ الإمارات المتحدة . دط ، دت

– **مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس**: أحمد مختار عبادي ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، 1983

– **مفاخر البربر**: مؤلف مجهول، تح: عبد القادر بوباية،دار أبي رقراق، ط1، الرباط، 2005

– **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: أحمد بن محمد المقري. شرح وضبط : مريم قاسم الطويل، يوسف علي الطويل – دار الكتب العلمية ،ط1، لبنان ، 1995